مقدمة

خلق الله ﷻ الإنسان ليكون خليفته في الأرض، كما أنه ﷻ لم يتركه وشأنه، بل أرسل للبشر قرآنًا كريمًا ينظّم حياتهم الشخصيّة والاجتماعية، وبعث فيهم نبيًّا مرشدًا يُعلّمهم الكتاب والحكمة ويُبيّن لهم، فمن يتدبّر القرآن الكريم حقّ تدبّره؛ يُحسِن تأويله وتجسيدَ معانيه، حتى إن أمّنا السيدة عائشة ﵂ حينما سُئِلَت عن خُلُق النبيّ ﷺ قالت: "كان خُلُقه القرآن"[1]، ومن ثمّ كان المصطفى ﷺ خير مرشد لنا يعلّمنا القرآن الكريم، ويتّضح من قوله تعالى ﴿**وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا**﴾[2]، أن الإسلام قد ارتضاه الله دينًا عامًّا للبشريّة جمعاء، وأن سيدنا محمد ﷺ قد أُرسل لتبليغ هذا الدين، وبفضل هذا المرشد والمبلّغ العظيم؛ سيغدو الناس عبادًا طائعين لربّهم، ويبتغون مرضاته، ولكي يتحقّق ذلك أمر الله ﷻ الناس في آياتٍ كثيرةٍ من القرآن الكريم بأن يطيعوا الرسول ويتبعوه، فقال تعالى في محكم آياته ﴿**قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾[3]، ومنها نتعلّم أن ثمرة اتّباع الرسول ﷺ هي نيل حبّ الله أي إذا كنا نبغي الإيمان الحقيقيّ ونبتغي إلى جانبه رضوان الله؛ فيجبُ علينا أن نتّبع سنة نبيّنا ﷺ ونحيا على نهجه، ومن ثمّ يجب علينا معرفة حياته ﷺ وسنّته جيّدًا، وقد قام علماء الإسلام من لدن

(١) **مسند الإمام أحمد**، ٤١/١٤٨؛ البخاري: **الأدب المفرد**، ١/١١٥.

(٢) سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ٥/٣.

(٣) سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: ٣/٣١.

العهد الأوّل بتصنيف سنّته ﷺ من حيث وجوب اتّباعها، وألّفوا كتبًا كثيرةً في هذا الشأن، وقد تناولت كتب أصول الفقه حياة الرسول ﷺ من منظور كونه نبيًّا وأبًا وقائدًا، كما تضمّنت أوامره ونواهيه وإرشاداته ونصائحه وإجاباته على الأسئلة والاستفسارات وتوجيهاته للناس في أمورٍ عدّة، ولقد بيّن علماء الفقه في هذه الكتب أنه يجب علينا اتّباعه ﷺ في كلّ سلوكٍ ذي طابعٍ ديني، أما السلوكيّات التي كان النبيّ ﷺ يقوم بها ولسنا مجبَرين على فعلها فهي تختلف باختلاف الاحتياجات المادّيّة والفطريّة للشخص، لكن يُثاب فاعلها ولا يُعاقب تاركها.

بيد أن "سعيد النورسيّ" له نظرةٌ مختلفةٌ تمامًا لهذا النوع من السنن التي تندرج تحت الآداب، حيث نظر بديع الزمان لهذه الآداب نظرةً إيجابيّةً، أي إنه لم ينظر إليها من باب "لا يُعاقَب تاركها"، بل نظر إليها من باب "يُثابُ ويُؤجر فاعلها" فقد أرادَ تحقيق الأجر والثواب من خلال إحياء السنّة التي يتكاسل كثيرٌ من الناس عن أدائها، وقد قال في هذا الشأن إن مصادر السنّة ثلاثة:

١- أقوال النبيّ ﷺ

٢- أفعاله ﷺ

٣- أحواله ﷺ

وهذه المصادر الثلاثة للحديث الشريف تنقسم أيضًا إلى ثلاثة أقسام: الفروض، والنوافل، والعادات.

١- الفروض: ونحن مجبرون على اتّباعها، ومن يتركها يُعاقب.

٢- النوافل: وهي على ضربين:

أحدهما: السنة النبويّة الخاصّة بالعبادات، ويُعتبَر تغييرُها بدعة، ويُثابُ فاعلها ولا يُعاقب ولا يأثَم تاركها.

أما الثاني: وهو الآداب ولا يقال أن مخالفَتها بدعةٌ؛ ولكن تكون مخالفة لآداب رسول الله، وعدم انتفاع من نورها وحكمتها، وهذا الجزء يعني: اتّباع النبيّ ﷺ في سلوكيّاته التي تندرج تحت العرف والعادة والتي توجبها الفطرة مثل الطعام والشراب مثلًا، وهناك سننٌ كثيرةٌ تخصّ آداب الحديث والكلام، وسننٌ أخرى تخصّ آداب المعاشرة، وهذه الأنواع من السنن تسمى آدابًا، ومن يتّبع هذه الآداب سينتقل من العادة إلى العبادة والانتفاع المعنوي، لأنّ اتّباع آداب النبي ﷺ الخاصّة، يُذكّرنا بالنبيّ ﷺ، ويُدخل النور إلى القلوب.

٣- أما العادات والسلوكيّات: فالأفضل فيها أن يتبعها الفرد أو المجتمع من أجل حكمتها ومنفعتها، وذلك لأن اتّباع هذه العادات والآداب يدخل في حكم العبادات لأن كلّ عادةٍ أو سلوكٍ منها يحوي منفعةً وفائدةً خاصّة، علاوةً على ذلك كلّه فالأهمّ هو "النيّة الخالصة في الأعمال" ومن ثم يمكننا القول بأن "اتّباع السنة الشريفة بنيّةٍ خالصةٍ يُحوّل العادات إلى عبادات"، وتستوقفنا هنا ثلاث نقاط، إذا ما فهمناها وطبّقناها في حياتنا اليومية فإنّنا سننال ثوابًا جزيلًا على عملٍ قليلٍ، وهذه النقاط هي كالتالي:

أ. العبادة:

وهي اللجوء إلى الله والاستسلام إليه عن رغبةٍ، والخضوع إليه وإطاعته والانقياد له ﷻ، فالعبادات تقوّي العلاقة بين العبد وربّه، ولها أقسامٌ كثيرةٌ تناولتها كتب الفقه منها الطهارة، الوضوء، الغُسل، التيمّم، الصوم، الزكاة، النذر، الأضحية.

ب. الآداب:

وهي جمع كلمة "أدب" بمعنى الخلُق الحسَن، التربية السليمة، الكياسة وحسن المعاملة؛ فالأمور الخاصّة بالأخلاق تسمّى أصولَ وآداب التربية والمعاملة الحسنة، وكل ما نقوم به في حياتنا اليوميّه عدا العبادات يسمّى "آدابًا" أو "عاداتٍ".

ولقد قسّم الإمام "الشاطبيّ" العادات إلى قسمين:

١- عاداتٌ لا تتغيّر بتغيّر الزمان والمكان والحال؛ وهي الميل إلى الرغبات الطبيعيّة مثل الطعام والشراب والفرح والحزن والنوم والاستيقاظ والبعد عن ما لا يتلاءم مع الفطرة وقبول كلّ ما هو طاهر طيّب، وغيرها من الأشياء التي تندرج تحت هذا القسم.

٢- عاداتٌ تتغيّر بتغيّر الزمان والمكان والحال؛ وهي طراز اللّبس وشكله ونمط المسكن والمأوى والتعامل بالرفق في حالة الشدّة والشدّة عند الرفق والتردّد والتسرّع في التعامل مع الآخرين وغيرها.

جـ. النيّة:

وهي أن نقوم بالعمل بإخلاصٍ ابتغاء وجه الله تعالى، ففي ديننا الحنيف يُقدّر عملنا طبقًا لنيّاتنا، وفي هذا يروي عمر ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: ''**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**''(٤)، أمّا إذا كان العمل ممّا أمرنا الله به فإن الفاعل يُثاب على فعله؛ لاتّباعه الأمر الإلهيّ، فقد قال تعالى -على سبيل المثال- فيما يتعلّق بالصلاة

(٤) صحيح البخاري، الإيمان، ٤١؛ صحيح مسلم، الإمارة، ١٥٥.

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾[٥]، فمن يتّبعْ الأمر ويُقمْ الصلاة يُثبْ، ومن يعصِه يُعاقب، كذلك الصوم والحجّ والزكاة وأبسط الفروض وأوامر البرّ، كما أن هناك ما هو مُحرّمٌ ومنهيٌّ عنه، فمثلًا من يتجنّب شرب الخمر وقتل النفس وغيرها يُثاب ومن يفعلها يأثم، وما سوى ذلك فهو يندرج تحت الآداب، وهي تسمّى عادةً "الأمور المباحة" أي الأمور التي لا يُثاب فاعلها ولا يأثم تاركها، مثل الطعام والشراب والنوم، ولكي يُثاب فاعلها أو يُعاقب تاركها لا بدّ من معرفة نيّته عند القيام بها، فمن شرب كوبَ ماءٍ بنيّة أنه خمرٌ فهو آثمٌ، وإذا شرب المؤمن دون أن يتّبع السنة في الشراب لا يُثاب ولا يُعاقب، أما إذا شرب بنية اتّباع السنة فأمسك القدح بيمينه وسمّى ثم شرب ثلاثًا فله الثواب، كذلك من ينام على شقّه الأيمن ثم يقرأ الدعاء وينفث في يديه ويمسح بهما ما أقبل من جسده ثم يضع يده اليمنى أسفل وجنته اليمنى يُثاب، وتكون النتيجة أن هذه الأعمال التي اعتاد القيام بها يوميًّا تتحوّل إلى عبادة، وذلك يُشبه "صناعةَ الذهب من الحديد" فيجب أن نفعل ذلك لكي نربح ثواب العبادة من عملٍ يبدو لنا بسيطًا وسهلًا للغاية.

وفي النهاية فإن الجميع يتمنّى الفوز بالجنّة، ويستعدّ لذلك بأداء الصلوات الخمس يوميًّا، فهي تشغل ساعةً واحدةً فقط من اليوم بأكمله.

أي إننا نريد دخول الجنة والفوز بها عن طريق ساعةِ عبادةٍ واحدةٍ فقط من أصلِ أربعٍ وعشرين ساعة، لكنّنا إذا طبّقنا المنهج السابق سنتمكّن من تحويل الثلاث وعشرين ساعة الباقية أيضًا إلى عبادة، وبهذا نكون قد قضينا الأربع وعشرين ساعة في العبادة، ومن ثمّ علينا أن نسعى لمعرفة

(٥) سُورَةُ النِّسَاءِ: ١٠٣/٤.

نهجه ﷺ وكلّ سلوكٍ قام به في شتى مناحي حياته، وهكذا نحيا وكأنّنا قد أفنينا عمرنا كلّه في العبادة.

ولقد أردنا في هذا الكتاب أن نبيّن للقارئ سلوكيّات النبيّ ﷺ في حياته إضافةً إلى وصاياه ونواهيه، وسنتطرّق بإيجازٍ إلى تلك العلوم والفروع الإسلامية التي تناولت جوانب حياةِ وسيرةِ النبيّ ﷺ بشكلٍ خاص.

علم الحديث:

هو العلم الذي يتناول أقوال الرسول ﷺ وأفعاله وسلوكيّاته.

السِّيَر:

جمع "سيرة" وهي تعني سيرة الرسول ﷺ، وهو العلم الذي يتناول حياة الرسول ﷺ منذ ولادته وحتّى وفاته.

المغازي:

وهو العلم الذي يتناول غزوات الرسول ﷺ، ويشمل الأحاديث التي تتحدّث عن هذه الغزوات، وهو في الأصل جزءٌ من السِّيَر، بيد أنه يتناول غزوات النبيّ ﷺ فقط.

الشمائل:

هو العلم الذي يتناول أخلاق النبيّ ﷺ وخصاله التي تُشكّل شخصيّته وتكوّنها، ويتناول بُنْيَتَهُ الجسديّة وأسلوب حياته ولباسه الخاص.

الدلائل:

بينما تتناول الشمائل النواحي البشريّة للرسول ﷺ؛ فإن الدلائل هي العلم الذي يدلّ على صدق نبوّته ﷺ ويُبيّن حقيقة معجزاته.

obeikandi.com

ولقد تناول هذا الكتاب أجزاءً محدّدةً من شمائل الرسول ﷺ، ولم يناقش شمائله كلّها في هذا الكتاب لعدم الإطالة، ونحسب أنه سيتمّ تناول باقي المواضيع في كتبنا الأخرى، ولقد تمّ إعداد هذا العمل بهدف دراسة النواحي البشريّة للرسول ﷺ وتطبيقها على كلّ جزءٍ في حياتنا اليوميّة، فإذا قمنا بدراسة سيرة نبيّنا وقدوتنا الحسنة ﷺ دراسةً جيّدةً، وتعلّمنا أحواله وسلوكيّاته، عند ذلك سيسهل اتّباعها وتطبيقها بصورةٍ أفضل وأكبر، وعندئذٍ قد نربح ثوابًا من أفعال لا يُثاب فاعلها عادةً مثل الطعام والشراب والنوم والجلوس والتهادي.

ونريد أن نوضّح هنا مسألةً تتعلّق بمجمل الكتاب، وهو أننا قد تناولنا في هذه الدراسة النواحي البشريّة للرسول، وأوردنا بعض التعليقات كلّما لزم الأمر، فهناك تفسيرٌ وإيضاحٌ مختصرٌ لبعض الأمور التي يجب توضيحها، أو التي قد تُفهم بشكلٍ خاطئ، ومما يجدر التنبيه إليه أننا انتهجنا في هذا الكتاب منهج "الكاندهلوي" في كتابه "حياة الصحابة"، وذلك نظرًا لوضوح المشاهد والأحداث المدروسة هنا من سيرة النبيّ ﷺ العطرة، فهي لا تستدعي الإيضاح والشرح إلا في مواطن قليلة، وقد قمنا بهذا الشرح والإيضاح في مكانه المناسب خدمةً لك أيّها القارئ الكريم.

وأرجو من القارئ الكريم المعذرةَ لما قد يبدو في هذا العمل من نقصٍ أو تقصيرٍ، وأتوقّع نقدًا بنّاءً، كما أنني أعلم بأني مدينٌ بالشكر لكلّ أصدقائي الذين كانت لهم يدٌ في إعداد هذا العمل ونشره، وأتمنّى أن يكون وسيلةً لنيل شفاعة المصطفى ﷺ.

مصطفى كُونْدُوغْدُو
١٩ نوفمبر ٢٠١٠م
جامليجا/ إسطنبول

obeikandl.com